العلماء العالمون وأثرهم في الأمة

الأستاذ محمد حسن بريغش

في الظروف الصعبة تشعر الأمة بقيمة رجالها العظماء وتحس بحاجتها إلى المخلصين العاملين من أبنائها، والرواد المؤمنين بالتزاماتهم الأخلاقيّة والإنسانيّة من أبناء شعبها نحو أبناء شعبهم، هؤلاء الذين تستقيم أعمالهم على الحق، وتعلو هممهم فوق الصعاب، ويتخطون بعزائمهم صعوبات المرحلة التي يمرون بها و ضرورات الحياة اليومية التي يحتاجون إليها، وهكذا يتميز رجال بمالهم من صفات متفردة، وبما يتمتعون به من المزايا المتميزة، وبما يقدمونه من الأعمال العظيمة التي تسهم في نفع العباد والبلاد .

وأمتنا على مدار التاريخ تميزت بعظمائها، وبرجالها الذين خطّوا في الحياة أروع الأمثلة، وكانوا أسوة حسنة للشعب كله. حيث كان الناس جميعاً ينظرون إليهم بأمل، ويتبعون خطواتهم بعزيمة، ويسيرون وراءهم تحت لواء الحق وهم مصممون على إحقاق الحقّ ونبذ الباطل، ولذلك استطاعت هذه الأمة التي أناط الله بها مسؤوليات ضخمة في الحياة أن تنتصر على أعدائها، وأن تبني حضارة وارفة الظلال، ومجداً رائع البناء وأن تنشر عقيدة سامية، وتقيم دولة عظيمة، وتترك أروع الآثار في مختلف المجالات.

وعندنا كثير من المصابيح المضيئة ممن كانوا قدوة منيرة على مرّ العصور، فمنذ ولادة محمد عليه الصلاة والسلام وإلى يومنا هذا نجد أمثلة لا تعدّ ولا تُحصى في الميادين كافة .

فرسول الله صلوات الله عليه وصفه الله تعالى في كتابه الحكيم: بالأسوة الحسنة للمؤمنين، ولذلك كان وما يزال القدوة الرائعة الجلية في كل أمر من أمور الحياة وفي كل تصرفاته الدّينيّة والدّنيويّة: في بيته ومجتمعه، بين أصحابه وأعدائه، في سلمه وفي حربه، في معاملاته الخاصة والعامة، واستطاع بهذا السلوك السوي المستقيم، وهذا النموذج العملي أن يعطي المسلمين المضطهدين القلة نموذجاً رائعاً يحتذى، وقدوة واضحة تتبع، ومثالاً عملياً لكل ما يدعوهم إليه أو يبشرهم به.

واستطاع أيضاً أن يعطي أعداءه مثالا حيّاً وبرهاناً واضحاً على صدق ما يدعو إليه بهذا الانسجام الرائع بين أقواله وأعماله، وبهذه القدوة التي ضربها للناس جميعاً.

أمّا الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم فساروا على نهج معلّمهم وصاحبهم، وعملوا على أن يكونوا خير قدوة لبقية المؤمنين والتابعين وذلك باستقامتهم على الحق، وتمسكهم بالعدل، وقيامهم بالواجب، وإيثارهم للخير، وتضحيتهم من أجل الناس، وشجاعتهم في مواجهة الأمور، ومشاركتهم للأمة في أفراحها وأحزانها، ولذلك استطاعوا أن يُتموا بناء الدولة، وأن يُقيموا الأجهزة الجديدة، ويجهزوا الجيوش الفاتحة، وينساحوا في الأرض شرقاً وغرباً هادين فاتحين منتصرين.

كما استطاعوا أن يعطوا المسلمين بعلمهم وسلوكهم الأمثلة الواضحة على أخلاق المسلم وصفة الحاكم، واستقامة العالم، وتقوى المسلم، في الحرب والسلم وفي الأمور الخاصة والعامة.

وهذا ما خلّد ذكر القواد العظام الذين بقيت معاركهم غرّة مضيئة على جبين الزمن أمثال خالد وأبي عبيدة وجعفر وزيد وابن رواحة وسعد وعمرو وغيرهم، هؤلاء الأعلام الذين كانوا قدوة لجنودهم في التقوى وصدق الايمان، وفي التضحية والاقدام والشجاعة في الحكمة والتأني، والبطولة والفداء، فكان سلوكهم تطبيقاً عملياً لما يؤمنون به، ونموذجاً حيّاً أمام الجيوش المؤمنة التي تطيعهم.

وهناك الكثيرون ممن ضربوا أروع الأمثلة العملية على مرأى الناس وسمعهم فكانوا قدوة لغيرهم ممن يعيشون معهم وأمثلة أمام الأمة جمعاء على مرّ الأيّام.

ولأنّ دوام الحال من المحال والتّغيّر من سمات الأيّام وفيه السّلبيّ والإيجابيّ فقد اتسعت رقعة الدولة، وشابت أخلاق المسلمين الكثير من البدع نتيجة تدخل العناصر المشبوهة والمنافقة في تسيير دفة الحكم، حينها رفع العلماء الصالحون راية الحق، وحملوا دعوة الجهاد بالكلمة والسيف وأظهروا كلمة العدل التي عمل شياطين الإنس على إخفائها، وأصبحوا المصدر الذي يشع بالنور والهداية على الأمة لأنهم "ورثة الأنبياء" بما يعلمون، وبما يتحملون من المسؤولية أمام الله عزَّ وجلّ، وعليه فإنّ الأمانة الكبرى تقع على كاهلهم لتوجيه الناس نحو الخير وتبصيرهم بمواقع الشر والظلام، ودعوتهم للجهاد ضد الأعداء الذين يقتحمون حمى الوطن بكلّ أنواع الأسلحة الظّاهرة والخفيّة.

وهذا ما يجعلنا نرى في كل وقت أمثلة رائعة للعلماء المخلصين العاملين، الذين يرفعون لواء الحق عالياً بلا خوف، ويتمسكون بالخير والإسلام رغم الصعوبات والمحن والقسوة والتنكيل الذي كانوا يلاقونه وما زال السّائرون على نهجهم يتحملونه.

فالحسن البصري، والامام أحمد، وأبو حنيفة، والشافعي، والامام مالك، والعز بن عبد السلام وغيرهم كثيرون، كل هؤلاء كانوا أمثلة واقعيّة من الأمثلة الكثيرة التي ضربها العلماء المتقون العاملون للناس.

وبذلك استحقوا أن يكونوا أئمة وقدوة لهم، لأنهم صدقوا الله في أقوالهم وفي أعمالهم، وتحملوا من أجل ذلك الاضطهاد والعذاب والتنكيل، وكانوا في طليعة الأمة عند الجهاد، ولا نزال نذكر مواقف العز بن عبد السلام وكيف استطاع هذا العالم التقي العامل أن يحرك الأمة، ويحيي الأمة، ويثير العزيمة، ويثير النّخوة في النفوس لملاقاة الجحافل الغازية التي أرادت تدمير الأرض والناس والحضارة. فكان فضل هذا العالم جليّاً إذ حول الأمة من حال التخاذل والخوف والمعصية والهزيمة إلى الحال الإيجابيّة المقابلة من العزيمة والشجاعة والطاعة والنصر. كل ذلك بفضل ما حمل من الحق، وبفضل السلوك السوي الذي تميز به، والقدوة الحسنة التي أعطاها للناس جميعاً.

وحين نستعيد تاريخ هؤلاء العلماء نجدهم أشد تمسكاً بالحق من تمسكهم بالحياة، وأكثر ملاذاً بالإسلام والخير من ملاذهم بالمال والبنين، وأحرص على رضا الله من حرصهم على أية منفعة أخرى، إذا استنصروا لا يستنصرون إلا الله، وإذا خافوا لا يخافون إلا الله، وإذا طلبوا الرضا لا يطلبونه إلا من الله. أعمالهم ترجمة لما يعتقدون، وسلوكهم صورة عما يدعون، وتصرفاتهم قدوة لمن يرشدون.

هؤلاء العلماء جعلهم التزامهم بتعاليم دين الإسلام يستحقون أن يكونوا ورثة الأنبياء، لأنهم في كلّ مناحي حياتهم يؤثرون العمل على القول، ويعدون العدة للوقوف بين يديّ الله قبل أن يرفعوا أيديهم بالدعاء.

هؤلاء العلماء أصحاب الضّمائر المستيقظة والعقول المنفتحة هم الذين يعرفون أن مخالفة أعمالهم لأقوالهم أبشع النفاق، وأن سوء سلوكهم أدهى الأخطار، وأن عدم اتباعهم للحق في كل حركاتهم إنما يوقعهم في الإثم والحرام، ويجعلهم القوم الذين يخاطبهم الله تعالى بقوله: أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (البقرة: ٤٤)، ويعرفون حق المعرفة فداحة الخطب الذي ينزل بهم وبأمتهم في الدنيا والآخرة عندما ينافقون وينحرفون ،ويعطون الأمثلة السيئة للأمة بسلوكهم بعدما سمعوا قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ٣ سورة الصف. فإذا كان هذا خطاب لعامة المؤمنين فكيف بالعلماء الذين يدركون أكثر من غيرهم!!.

إن العالم التقي العامل شعلة مضيئة أمام الناس، وقوة روحية تدفع بالخير والحق إلى الانتشار والفوز، والأمة حين تجد بين ظهرانيها أمثال هؤلاء تتجنب كثيراً من العثرات، وتجد النموذج العملي كما ترنو إليه، وترى القدوة الحسنة التي تتأسى بها في مشاق الطريق وتتبصر النموذج الواضح الذي تقتدي به لتميز بين الحق والباطل وبين الصادق والكاذب، وبين المؤمن والمنافق، وبين العالم الصحيح، والمدعي الكاذب .

ونحن في هذه الأيام، أحوج ما نكون إلى أمثال هؤلاء العلماء المتقين العاملين، الذين يعطون بسلوكهم وعملهم مثالا يحتذى، وقدوة تتبع ويضربون للمسلمين التائهين الوقائع العملية التي لا تخطئ دليلا على تربية الإسلام، وأثراً لمبادئه.

نحن بحاجة إليهم ليرفعوا راية الحق، ويكشفوا زيغ الباطل، ويبثوا في الأمة روح الرجولة والعزيمة والأمل، ويصلوا بها إلى روعة الجهاد، والاستبشار بالنصر، والنشوة بالشهادة.

هؤلاء العلماء هم الذين يترفعون فوق المادة، ويزهدون بما في الدنيا من شهوات، ويترفعون عن كل المغريات، ويصمدون أمام كل المخاوف، ويبنون الحياة على الوجه الأجمل.

نقلاً عن: حضارة الإسلام – مجلة فكرية جامعة
عدد (٣) تموز وآب ١٩٦٩ دمشق صفحة ٧٦